ثامناً : دعائم الحضارة الإسلامية .

من خلال ما عرضنا لمفهوم الحضارة في التصور الإسلامي بدا لنا أن الحق المطلق الخالص لله ﷻ هو الأصل في قيام الحضارة في دعوة الحق، إنه الحق المستمر من الإله الخالق للكون ، بما فيه ومَنْ فيه ، والذي يتم به انتفاضة البشرية من بين ركام الجاهلية ، والذي يتم به الإلهام وتتحقق البصيرة في ظلمة الجاهلية ، والذي يتم به تكوين الفئة القليلة الأولى المنشئة للأمة الجديدة ، والتي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله :

" **لن تزال طائفة من أمتي قائمة بهذا الدين لا يضرهم مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله** " (٧٠)

هذه الأمة أمة الدعوة التي ترتبط بالحق ارتباطاً وجدانياً وسلوكياً كاملاً ، وهي التي ستتحمل مرحلة المواجهة بين الأمة الجديدة وبين الجاهلية من خلال الدعوة إلى هذا الحق ، ثم غلبة هذه الأمة ، وتكوين الدولة وامتدادها العسكري ، ثم مرحلة النمو الاجتماعي ، الإداري والاقتصادي والسياسي .

وعلى أساس العلاقة بين مفهوم الحضارة والحق الإلهي يمكن القول أن البناء الحضاري وهيكله في دعوة الحق وتصورها يقوم ويرتكز على ثلاث مرتكزات :-

(١) الكتاب الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط المنهج بالحق .

(٢) الحكم الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط السلطة بالحق .

(٣) النبوة التي تمثل في البناء الحضاري ارتباط الإنسان بالحق .

---

(٧٠) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ج١٣ ص٦٦-٦٧ .

ومن هنا يمكن القول : بأن البناء الحضاري هو مضمون قول الله ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ.. ﴾ الأنعام ٨٩ .

وارتباط مفهوم الحضارة بالحق له صبغة محددة ، وهي ارتباط الحضارة من حيث الأصل بالرسالة ، فالحضارة ــ إذاً ــ هي الصبغة النهائية للأمة ذات الرسالة الإلهية بوجودها الثابت وغايتها التامة ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ...﴾ البقرة ١٣٨ .

ولكل أمة من الأمم حضارة ، ولكل حضارة زمن وتاريخ تدور في فلكه ، والأمم السابقة عن الإسلام كانت حضارتها موقوتة بأجل :﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..﴾ الأعراف ٣٤ .

فإذا ما ارتبط أجلها بالحق الخالص لله ﷻ فإن حضارتها ستظل باقية ببقاء الأمة الإسلامية ، فالأجل حقيقة كل موجود ، أما أجل الأمة وارتباطه بالحق فله اعتباران :

اعتبار الوجود ذي الفاعلية الناشئة عن الارتباط بالحق .

واعتبار الوجود المجرد من الفاعلية بعد الانفصال عن الحق .

وقد تنتهي فاعلية الأمة ويبقى وجودها المجرد كالأمة اليهودية والنصرانية دون أي مضمون حضاري لانفصالها عن الحق .

وكما حدد الحق أجل الأمم حدد مجالها الحضاري ، فلكل أمة أو حضارة مكان ارتبط قدر وجودها به ارتباطاً يصل إلى حد الرمز ودليل هذه الرمزية﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا البَلَدِ الأَمِينِ ﴾التين١-٣

ولما كان لكل أمة حضارية مجال أوجدها الله ﷻ للعمل فيه ، فإن تجاوز الأمة لذلك المجال يعني نهايتها كالأمم السابقة ، فقد حكى القرآن الكريم ملامح حضارتها وأهم مظاهرها ، فالذين آمنوا زادهم هدى وآتاهم

تقواهم، وأما الذين فسقوا عن أمر ربهم فقد كان مصيرهم الهلاك والصيحة والدمار . (٧١)

وارتباط رقي الحضارة ومدنيتها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانها بدعوة الحق من حيث النشأة والامتداد ، وهذا ما يُسمى بالولاء الحضاري ، حيث ينبثق من ولائها كنه هذه الحضارة وذاتيتها ، فإن ارتبطت بالحق الإلهي اصطبغت هذه الحضارة بالصبغة الإلهية حتى وإن تعددت الرسالات بتعدد الرسل والأنبياء فإن الأصل في دعوتهم واحد ، ومعيارهم ومعينهم واحد ، هو دعوة الحق والكلمة الإلهية الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

أما إذا ارتبطت الحضارة بسبيل الباطل وأدعيائه اصطبغت هذه الحضارات على اختلاف مسمياتها بالصبغة البشرية الفانية ، وهذا يعني : أن مفهوم الحضارة الحقة يتحدد من خلال الارتباط بالحق ، أما الحضارات الزائفة الباطلة فهي التي ترتبط بولائها لمقياس البشر ، وهو يختلف نوعاً وكماً وكيفاً من أمة لأخرى ، وأنّى لهؤلاء أن يكون لهم هيكل حضاري يتفاخرون به وهو قائم على أسس واهية ودعائم لا ساق لها ؟!!

ومن ثم يمكننا إجمال الأسس التي تقوم عليها دعوة الحق فيما يلي :-

أولاً : عقيدة التوحيد وملاءمتها للفطرة الإنسانية ودورها في الهيكل البنائي الحضاري .

هذه العقيدة الإلهية تقوم على أن الله واحد لا شريك له ، هو الخالق لكل ما في الوجود كله وأنه المهيمن على كل شيء وأنه مالك الملك يؤتيه مَنْ

(٧١) قدر الدعوة ــ رفاعي سرور ص١١٤-١١٩ بتصرف .

يشاء وينزعه ممن يشاء لا يُسأل عما يفعل وله الخلق والإيجاد ، ومن ثم جاءت عقيدة التوحيد بحضارتين :-

١- حضارة إحياء . ٢- حضارة بعث .

أما حضارة الإحياء فتتجلى في إحياء القيم والمكارم الأخلاقية النبيلة .

وأما حضارة البعث فجاءت ممثلة في الدعوة إلى توحيد الله ﷻ ونبذ كل عقائد الشرك والوثنية ، والإيمان بالله ﷻ ، يدعو إلى تطهير النفوس من ربقة العبودية لغير الله ﷻ ، وتحرير الإنسان من ذل عباده الطواغيت إلى عبادة الله الواحد القهار ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾ البينة ٥.

وحتى لا تنحرف البشرية في سبل الباطل حدد لها وجهتها ومسارها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الروم ٣٠ .

وأن سبيل دعوة الحق واحد لا يتعدد ولا اعوجاج فيه :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...﴾ الأنعام١٥٣.

ودعوة الحق دعوة فطرية ، وهذا الدافع يدفع الإنسان مهما كان زائغاً في براثن الجنوح والانحراف وفي سبيل الضلال والمعاصي إلى الاعتراف بالله لكشف الضر وإزالة الغم وتفريج الكرب وتيسير العسر :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. ﴾ الطلاق٣.

وهن دوافع الفطرة الإلهية التي غرسها الله في النفس الإنسانية لتجعلها دائماً تفزع إلى الله في كل أحوالها وسائر شئونها والاعتراف بخالق هذا الكون والفزع إليه في الشدائد والملمات ، ثم الإيمان به والانقياد لأمره

واجتناب نواهيه ، وهذا الإيمان له من الأهمية في تغيير النفوس وتطـهير القلوب من براثن الشرك والوثنية وسائر الاعتقادات الزائفة وغرس عقيدة التوحيد ، فأي حضارة إنسانية جاءت بهذا المبدأ الإسلامي ؟!!

إنها الحضارة الإسلامية وحدها التي جمعت فأوعت بين عنصري المـادة والروح ووازنت بينهما وكانت بين ذلك قواما . (٧٢)

ثانيا : الشريعة الإسلامية ودورها في بناء الهيكل الحضاري :-

وإذا كان للعقيدة أثرها الفعال في بناء الهيكل الحضاري لأمة الدعوة فـإن للشريعة الإسلامية ــ أيضا ــ نفس الدور ، ذلـك أن الإسـلام عقيـدة وشريعة ، فإذا كانت العقيدة تبني الإنسان بناءا روحيا فإن الشريعة تبنـي الإنسان بناءا سلوكيا ، ولم تترك منحى مـن منـاحي الحيـاة الدنيويـة والأخروية إلا ووضحته ، والشريعة عبادات ومعاملات ، ولها فوائد فـي تربية السلوك وتهذيب الأخلاق وتطهير النفوس ، وعن دور الصلاة فـي تهذيب النفوس وبناء الهيكل البنائي للحضارة الإنسانية ، يقـول الشـيخ محمود شلتوت :-

(١) إنها صلة بين العبد وربه : " **أقرب ما يكون العبد من ربه وهـو ساجد** " (٧٣)

(٢) تعود الإنسان الطاعة والامتثال ﴿ **فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ النساء ١٠٣ .

(٣) تربي في نفس الكائن الحي الخشية والخوف مـن الله ﷻ ﴿ **قـد أفلح المؤمنون** ﴾ المؤمنون١ .

---

(٧٢) هذا هو الطريق ــ سيد قطب ، الإيمان والحياة ــ د٠يوسف القرضاوي .

(٧٣) رواه البزار عن عبد الله بن مسعود ، ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة بزيـادة "فأكثروا الدعاء " ــ صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ١١٧٤و١١٧٥ .

(٤) تطهر الإنسان جسمانياً ــ مادياً ــ ومعنوياً ــن دنــس الذنــوب والمعاصي﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢.

(٥) أنها تربي في الإنسان ملكة الأمن والطمأنينة والسكينة :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ المعارج ١٩ .

" وجعلت قرة عيني في الصلاة " (٧٤)

(٦) تطهر السلوك الإنساني من الفواحش والمنكرات :

﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ..﴾ العنكبوت ٤٥ .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ..﴾ مريم ٥٩.

(٧) تضمن الرزق من الله ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْــهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ طه ١٣٢ .

(٨) الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّــهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة ٥.

(٩) توحد بين الفرد والجماعة وتربط بين قلوبهم بالتقوى ﴿ حَــافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ البقرة ٢٣٨.

هذه بعض فوائد الصلاة التي تهذب الفرد والجماعة وتربط بينهم برباط التقوى والخوف من الله وبذلك يتعود الإنسان الطاعــة لله ﷻ ويتطــهر سلوكه من كل زيغ ، ويسلك سبيل الاستقامة ومنهج الحق فينجــو مــن عذاب الله في الآخرة بعدما فاز بالسعادة في الدنيا ، تلك هي الحضــارة الحقيقية التي جمعت بين متطلبات الجســد والــروح ، والعمــل للدنيــا

(٧٤) رواه النسائي والحاكم والبيهقي وأحمد عن أنس ﷺ ، والطبراني عن المغيرة ﷺ ــ صحيح الجامع الصغير رقم ٣١٢٤و٣٠٩٨ .

والآخرة ، ومن ثم كانت الصلاة منهجاً تربوياً له تأثيره البالغ في سلوك الإنسان . (٧٥)

وإذا كان هذا أثر الصلاة في تهذيب النفس البشرية فإن لسائر العبادات الإسلامية ذلك الدور ، فهي تشريعات تحفظ للفرد استقلاله وحريته في العمل والكسب ، وتحفظ للمجتمع حقه على الفرد في المعونة والتضامن، وهو منهج متكامل يحفظ للإنسانية سعادتها دنيا وآخرة مادياً ومعنويا .

وإذا كان للعقيدة والشريعة أثرهما البالغ في بناء الهيكل الحضاري للإنسان ، فإن لقيمة العمل أثرها الفعال في الحضارة الإسلامية ، ذلك أن الله ﷻ خلق الإنسان ليكون خليفته في الأرض ، وهذه الخلافة لا تتحقق إلا بالعمل وفق شريعة الله ﷻ ، والعمل الذي حث عليه الإسلام هو العمل للدنيا والآخرة ؛ لأنه دين ودولة ، عقيدة وعمل ، ومنهج وسلوك : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل ٩٧ .

فالسعادة البشرية وحضارتها متوقفة على العمل الذي تقدمه والجهد الذي تبذله ، فلن تنهض أمة من كبوة ، ولن ترقى إلى السعادة إلا بالعمل في إطار العبودية الخالصة لله ﷻ .

ومن العمل : الجهاد في سبيل الله ﷻ لإعلاء كلمة الحق والدفاع عنها ، والجهاد قد يكون باللسان وقد يكون بالسنان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الصف ١٠-١١.

---

(٧٥) حولية أصول الدين بالمنوفية ــ مقال د٠مبارك حسين ص٨٩-٩٣ بتصرف ، الإسلام عقيدة وشريعة ــ للشيخ محمود شلتوت ص٨٥-٩٠ .

ومنه جهاد النفس من نزواتها وشهواتها ، فإذا أردنا أن ننهض ونرقى كما نهض سلفنا فعلينا أن نتحلى بالعمل في جميع مناحي الحياة ونجاهد قدر طاقتنا ووسعنا حتى نسعد دنيا وآخرة .

كما أن التكافل الاجتماعي له تأثيره البالغ في حضارة الشعوب ورقي الأمم وتقدمها ، وقد شرعه الدين الإسلامي ، واعتبره جزءاً أساسياً في بناء حياة الفرد والمجتمع حيث يشتمل على شعور الجميع بمسئولية بعضهم بعضاً ، وهذا في الواقع قانون من قوانين الاجتماع الذي يلائم الفطرة الإنسانية وعنصر من عناصر الحياة الطيبة ، يتوقف عليه كمال السعادة ، بل هو الأساس في حياة الأمم ورقيها وبقائها ، وللتكافل شعبتان:-

شعبة مادية ، وذلك بمديد العون للمحتاجين وإغاثة الملهوفين وتفريج كرب المكروبين وتأمين الخائفين ، وإشباع الجائعين ، والتيسير على المعسرين والمساهمة في إقامة المصالح التي يعود نفعها على الأمة الإسلامية : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ المائدة ٢ .

وشعبة معنوية : عن طريق الأخوة والتعاون والتضامن وتضافر أعضاء المجتمع على محو كافة المشكلات التي تعوق حركة التنمية في المجتمع الإسلامي ويكون ذلك بتعليم الجاهلين ، ومحو الأمية ، والنصح للمفسدين والمنحرفين والإرشاد والتوجيه للغافلين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد جعل الإسلام هذا التكافل بشعبه فريضة لازمة وواجبة على كل مسلم " المسلم أخو المسلم " (٧٦)

(٧٦) رواه مسلم ك البر والصلة رقم ٤٦٧٧عن ابن عمر ﷺ ورقم ٤٦٥٠ عن أبي هريرة ﷺ ، والترمذي ك الحدود رقم ١٣٤٦وقال : حسن صحيح غريب ، وأبو داود ك الأدب رقم ٤٢٤٨ ، وأحمد عن ابن عمر رقم ٥٣٨٨ ، وعن أبي هريرة رقم ٨٣٦٥ و٧٤٠٢و٧٧٥٦ .

" المؤمن للمؤمن كالبنيان " (٧٧)

هكذا فهم المسلمون مبدأ التكافل الاجتماعي فتعاونوا على البر والتقوى فاستقامت حياتهم وتقدمت بهم وازدهرت ، وسادوا الأمم أجمع وقدموا للإنسانية أعظم حضارة عرفتها البشرية على مر العصور والدهور ، ولن تستقيم حياة الإنسانية إلا بالعودة إلى النبع الحضاري بل والقيم الحضارية التي أرستها كلمة الوحي الإلهي بين سطورها ، وما على الإنسانية إلا أن تهتدي بنورها ، والتمسك بها ، والعض عليها بالنواجذ حتى تعود إلى سيرتها الأولى .

ثالثا : ولئن كانت دعوة الحق قد امتازت عن غيرها من سائر الدعوات الباطلة بأنها دين الحضارة والرقي والتقدم من خلال أصولها الاعتقادية ، ومبادئها التشريعية ، فإن الواقع يبين للباحث والمفكر والدارس أن هيكل البناء الحضاري في دعوة الحق قد استمد كل مقوماته وعناصر وجوده وأسباب نمائه وازدهاره من ذاتية الإسلام ذاته ، فإن من أهم دعائم الحضارة والتي جعلت منها حضارة عالمية متميزة وفريدة في تاريخ البشرية ما يلي :-

(١) أن حضارة دعوة الإسلام قد انطوت علي طاقة مادية وروحية جعلت منه قوة فاعلة ، و المهم في هذه القوة الفاعلة أنها كانت أصلا جذريا يمس كل الأوضاع في حياة البشرية .

---

(٧٧) رواه مسلم ك البر والصلة رقم ٤٦٨ عن أبي موسى ﷺ ، والترمذي ك البر والصلة رقم ١٨٥١، والنسائي ك الزكاة رقم ٢٥١٣ ، وأحمد رقم ١٨٨٣٦و١٨٧٩٩و١٨٧٩ .

(٢) أن حضارة الإسلام قد واتتها ــ باعتبارها دين دعـــوة ــ ظـــروف الانتشار في النطاق العالمي ، وفي ظلال الدعوة المستمرة تمكن الإســـلام من نشر طابعه الحضاري كعقيدة للحياة و الأحياء ، وأن يصبح في أقـــل من ربع قرن مقوماً أساسياً من مقومات الحضارة الإنسانية .

(٣) حضارة دعوة الحق سهلة وواضحة و ميسرة لبني البشر عامة وغير معقدة ولا جامدة في سائر ما كلفت و شرعت ، يتصـــل فيـــها الإنســـان بخالقه دون وساطة كهنوتية .

(٣) حضارة دعوة الحق رحبة تدعو إلى سبيل العقل و الضمير و الحـــق في حدود الأصول العقدية و التشريعية ، و من ثم كانت الدعوة إلى النظر و التأمل و المعرفة أساساً من أسس الحضارة الإسلامية ، وكان التفتـــح البصير مفتاح رقيها و مدنيتها ، وفي رحابه حضارة الإسلام اســتطاع أن يمتص ألوان الحضارات المختلفة ويوقد فيها قناديل الضياء و يقتبس منها ما يتفق و كلمة الوحي الإلهي ويسبغها بالطابع الإسلامي الشامل .

(٤) البيئة بعواملها المحلية و موقعها الجغرافي قد ساعدت علي إعطـــاء الحضارة الإسلامية ما كان لها من طابع قيادي و من مكانة لها الســـيادة وسط شتى الحضارات و سائر المدنيات الوضعية .

(٥) كلمة الوحي الإلهي هي معيار الحضارة الإسلامية ، وهي أعظم مـــا عرفته الإنسانية من ميزان يحتكم إليه و يعول عليه ، وأوثـــق شـــهادة ، و أصدق خبر في سجل التاريخ البشري كله وستظل إلـــي أن يـــرث الله الأرض ومن عليها ، وقد تضمنت القواعد الوضيئة الكفيلة بقيام المجتمـــع

الإنساني المثالي والذي تنشده الإنسانية فتجد فيها مبتغاها في كافة أنظمتها الحياتية فضلاً عن السعادة المرجوة في الدنيا و الآخرة .

(٦) اللغة العربية نفسها كانت ــ ولا تزال ــ دعامة من دعائم الحضارة الإسلامية ، وذلك لأنها أعرق اللغات منبتاً ، وأعزها جانباً وأقواها جلادة، وأعزها وأغزرها مادة وأدقها بلاغة وتصويراً لما يقع تحت الحس وتعبيراً عما يجول في النفس ، ولديها من المرونة و القدرة على الاشتقاق و القبول للتهذيب ، وسعة ميدانها للتعريب ، ما يمكنها من الاستمرار في عطائها ، نزل القرآن بلسانها فجعلها أكثر رسوخاً ، وأشد بياناً ، وأقوى استقراراً ، و بفضل القرآن الكريم صارت العربية أبعد اللغات مدى ، وأوسعها أفقاً و أقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الإنسانية ، واستطاعت العربية في ظل عالمية الإنسان أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، و ترتقي حتى تصل أرقى اختلاجات النفس [٧٨]

(٧) وللحضارة الإسلامية مقومات تاريخية و بشرية تتصل بالعصر الذي بزغ فيه فجر الدعوة الإسلامية ، ثم بالعنصر البشري و التكوين السكاني، فأما عن العصر فقد كان الإسلام ختام لدعوات الأنبياء و الرسل ، فربط الإسلام بذلك رباطاً لها من الناحية التاريخية باعتبارها " الدعوات " تمهيداً للدعوة الإسلامية الخاتمة ، كما كان في الوقت ذاته تصحيحاً لها ، و تصويب ما لحق بها من تغيير و تبديل و تحريف ، ولقد كان هذا كله

(٧٨) لمزيد من الاستفادة أنظر : دعوة الإسلام ضرورة لغوية ــ مقال للباحث د٠مرسي السويدي ــ تحت الطبع .

قوة دفع للفكر الإسلامي ، و ما اتصل به من حضارة ، ومن ثم انطوى التفاعل الإسلامي على قوة و ركيزة غلبت كل التحديات الجاهلية ، وتصدت لسائر الهواجس الباطلة ، و النزعات الشيطانية ، فانتشر طابع الحضارة الإسلامية على فاعلية لم يعرف لها في تاريخ البشرية نظير ولا مثيل .

(٨) ومما يذكر أن ترسيخ معالم الحضارة في دعوة الحق قد تضاعفت بفعل مقوم إنساني آخر وهو تنوع السلالات التي دخلت في الإسلام ، مما أدى إلى ظاهرة الاتصال و الاستمرار الزمني في الحضارة الإسلامية ، وكان الإيمان بالله تعالى و بكلمته الحقة القوة الدافعة الموجهة التي تسند الضعيف من أن يسقط ، و تمسك القوي من أن يجمع ، وتعصم الغالب من أن يطغى ، وتمنع المغلوب من أن ييأس ، واستطاعت حضارة دعوة الحق بمقوماتها وأصولها وعناصر جوهرها التي انبثقت من كلمة الوحي الإلهي أن تضفي على الإنسانية لوناً مشتركاً من الفكر الديني و تقنين نظم الحياة في كافة مناحيها الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و غيرها(٧٩)

وهذه هي أهم الركائز التي بُنيت على أساسها حضارة دعوة الحق ، وهي بلا ريب دعائم تؤكد هيمنة الهيكل البنائي الحضاري في الإسلام على غيره من سائر الحضارات البشرية .

---

(٧٩) انظر : حولية كلية أصول الدين بالمنوفية ــ مقال د٠أحمد السايح ص٤٠-٤٣ بتصرف ، ومستقبل الحضارة الإسلامية ــ د٠أحمد السايح ــ هدية مجلة الأزهر جمادى الأولى ١٤٠٥هـ

تاسعاً: عوامل انهيار الحضارات الوضعية كما صورها القرآن الكريم.

لقد كشف القرآن الكريم النقاب عن حضارات بشرية قامت ثم بادت ، و صور لنا أهم العوامل التي أدت إلى انهيار هذه الحضارات ، و يمكننا إبرازها فيما يلي :

الأول : الشرك بالله ﷻ وعبادة غيره من سائر الكواكب السيارة كعبادة الشمس ــ و غيرها ــ وقد كان هذا العامل في مملكة" سبأ " باليمن في جنوب الجزيرة العربية قال الله ﷻ ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ .**﴾ سبأ١٥-١٧.

ومن هذه الآيات ندرك حياة الحضارة السبئية وما كانت تتمتع به هذه المملكة من نعمة وغبطة ، و يحكي لنا القرآن الكريم أن هذه المملكة كانت في نعمة و غبطة في بلادهم و عيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وكانوا يعيشون في رغد من العيش والنعيم ، وأمان واطمئنان، وكان سبب هذه الحضارة هو ما أنعم الله به عليهم من مياه سد مأرب التي كانوا يزرعون عليها مختلف المحاصيل و الثمار التي تعود عليهم بالحياة الوارفة ، و السعادة الكاملة ، فنهضت حياتهم و تمتعوا فوق ذلك بالجو الجميل و النسيم العليل ، و النظافة في مسكنهم التي وصفت بأنها آية في الجمال و الجلال ، كما أنهم عاشوا في جو يسوده الأمان ، حتى أنهم كانوا يسافرون الليالي ذوات العدد و الأيام لا يخشون أحداً وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، فهذه حضارة بشرية قامت في مملكة سبأ و ملامح هذه الحضارة تتجلى فيما يلي : ــ

أولاً : نعمة السكن : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾

ثانياً : نعمة المطعم و المشرب ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾

ثالثاً : نعمة الصحة و الراحة النفسية كما يفهم من سياق النص القرآني ، وسكناهم في الجنة وما بها من أشجار مثمرة وهواء عليل يشفي الصدور، ويريح النفوس ، ويطمئن القلوب .

رابعاً : نعمة الأمن والأمان في أسفارهم وخاصة بالليل ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ سبا١٨ .

وتقديم ذكر الليالي والسفر فيها دلالة واضحة على أن الأمن كان متوفراً وحاصلاً ؛ لأنه إذا كان السفر ليلاً يتوافر له الأمن الذي هو مظنة الخوف من قطّاع الطرق وعصابات السلب والنهب ، فمن باب أولى الأمن في النهار يكون متوفراً ، كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم كان من الواجب أن يقابلوها بالشكر لله وهو طاعته في أوامره واجتناب نواهيه ، إلا أن هذه المملكة لن تقابل نعم الله ﷻ بالشكر بل قابلوها بالجحود والكفر والشرك حيث كانوا يعبدون الشمس من دون الله ﷻ كما حكى القرآن الكريم عنهم في قوله ﷻ على لسان حال الهدهد﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ النمل ٢٢-٢٤ .

ولما قابلوا نعمة الله ﷻ بالعصيان و الجحود له والإشراك به فكان جزاؤهم أن أرسل عليهم سيل العرم الذي هدم السيد وتسربت المياه التي

كانوا ينتفعون بها في زروعهم وثمارهم ومطعمهم ومشـــربهم وتلطيـف الجو لهم ونظافة مسكنهم ، وبدل أمنهم خوفـــا وجناتـــهم بجنـــات ذات أشجار لا تثمر ولا منفعة تجدي منها سوى الظل ، وبقليل من أشـــجار السدر ذات الثمر القليل الذي لا نفع منه والشوك الكثير ، وتفرقوا فـــي البلاد شذر مذر حتى عانوا حرمان هذه النعم وأصبحوا عبرة لكـــل مـــن يتأمل ويتعظ ويدكر ، ومن ثم فهمها بدت مظـــاهر الرقـــي الحضـــاري كالمسكن والأمن والمطعم والملبس ــ وغيرها ــ في أي أمة من الأمـــم ، فإن هذه المعايير واهية في بنـــاء الحضـــارة الإنســـانية ؛ لأن الأســـاس والدعامة الأساسية في بناء الحضارة الحقة يقوم على ارتباط الأمة بمعيار الحق الإلهي ، فإذا انعدم هذا الارتباط فعلى الحضارة المزعومة الـــهلاك والدمار والانهيار ، فإن الولاء الحضاري هو الذي يقوم على دعوة الحق ، فمنها ينبثق التصور الواقعي والحقيقي للكون كلـــه ، ولواقـــع الحيـــاة والأحياء .

ويتجلى ذلك ــ أي الولاء للحق ولدعوته ــ من خلال قول النبي ﷺ :

" **نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد وأمهاتنا شتى** " (٨٠)

إن هذا القول النبوي يظهر الحضارات السالفة من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وأنها رغم تعددها إلا أنها في الأصـــل واحدة في ولائها ومعيارها التي تستند إليه وتعتمد عليه ، وتنبثق منـــــه ، بدليل قول النبي ﷺ في حديث آخر : " **مثلي ومثل الأنبياء كرجـــل بنـــى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون**

---

(٨٠) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد عن أبي هريرة ﷺ ــ صحيـــح الجـــامع الصغـــير ١٤٥٢ .

ويقولون لولا وضعت تلك اللبنة " وفي رواية " فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " (٨١)

وهذا يظهر أن الحق المستمد من وحي الإله هو أصل قيام الحضارة في المنهج الإسلامي ، والذي يتم به انتفاضة البشرية من بين ركام الجاهلية ، وعلى أساس العلاقة بين مفهوم الحضارة وارتباطها بالحق يمكننا القول : عن البناء الحضاري في التصور الإسلامي له ثلاث مرتكزات :

أولها : الكتاب الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط المنهج بالحق .

وثانيها : الحكم الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط السلطة بالحق .

وثالثها : النبوة التي تمثل في البناء الحضاري ارتبط الإنسان بالحق .

ومن هنا يمكن القول : بأن البناء الحضاري هو مضمون ما جاء في قوله ﷻ ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة..** ﴾ الأنعام ٨٩ .

وارتباط كنه الحضارة بالحق له صبغة محددة ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ..** ﴾ البقرة ١٣٨ .

وهي ارتباط الحضارة من حيث الأصل بالرسالة الإلهية الحقة ، وصدق توينبي حين قال مؤكدا هذه الرؤية وكأن لسان الفطرة أنطقه بهذا القول : " **إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله** " (٨٢)

فالعبرة ببقاء الولاء الحضاري بارتباط الأمة بالحق المطلق لله ﷻ والخضوع له والإيمان بدعوة الله الحقة ، فإذا انعدم هذا الركن فقدت الأمة حضارتها وإن ادعتها ، كما سلف أن بينا الحضارة التي نشأت في مملكة سبأ ، فرغم مظاهر الرقي الحضاري التي بدت في هذه المملكة إلا

---

(٨١) رواه البخاري في الأنبياء ج٦ ص٥٥٨ ، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٥ .

(٨٢) نقلا من : قدر الدعوة ــ رفاعي سرور ص١١٤-١١٥ بتصرف .

أن الدعامة الأساسية للبناء الحضاري قد انعدمت فانهارت الحضارة من جذورها ؛ لأنها بنيت على باطل ، وما بني على باطل فهو باطل ؛ ذلك لأن الالتزام التكليفي لبناء هيكل الحضارة قد انعدم ، وبالتالي تنعدم سائر الخطوط الرئيسية لقيام الحضارة كالالتزام الوجداني ــ الذي يمثل الطاعة ــ والتبعية المطلقة للحيل التي خرجت عن الشرع الإلهي وبدأت الانقياد للجحود التكليفي الذي ينبثق من العقل البشري ونتاجه ، وهذا خط الانحراف ، الذي يوازيه خط ضياع الغاية ، وهي " الغاية الاعتقادية " التي تمثل الخضوع المطلق لخالق الكون والمهيمن عليه ، هذا الخط المنحرف يمثل غاية الحضارات الجاهلية التي ادعت رقيها ومدنيتها ، رغم ضياع غاية الحضارة التي هي غاية الوجود الإنساني وتحقيق العبودية البشرية في الكون بأسره لله رب العالمين ، فإذا تبعت الشهوات فقدت الحضارة الإنسانية أصلها ، ويتبع هذا فقد فاعليتها ويبقى لها الوجود المجرد لينتهي هذا الوجود المجرد بالانهيار التام أو الهلاك ، والفرق بين فقد الفاعلية وفقد الوجود المجرد مرده إلى الأصل المكتوب لكل أمة أو حضارة ، وهذا القانون هو فترة استحقاق الهلاك وتأصله حتى تظهر الحضارة البديلة والأمة الجديدة ، وهذه حكمة الأجل في إهلاك الأمم وانهيار الحضارات البشرية . (٨٣)

العامل الثاني : الكفر بنعم الله ﷻ ، فلقد كان أهل مكة يعيشون في رغد من العيش وأمن واستقرار يأتيهم رزقهم رغدا من كل مكان ، فلما جحدوا آلاء الله ﷻ ومنها بعثة النبي ﷺ بدد الله حالهم إلى حال ذاقوا فيه مرارة

(٨٣) المرجع السابق ص١٢٠ .

الحرمان من العيش الرغد ومن الأمن والاستقرار إلى حياة القحط والجوع والخوف ، فانقلبت أحوالهم إلى ضد ما كانوا عليه ، ويتمثل هذا الوصف في قوله ﷻ ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ إبراهيم ٢٨ .

والمراد بنعمة الله في الآية : رسالة سيدنا محمد ﷺ ومن ثم دعا النبي ﷺ عليهم بالقحط والجوع وقال : " **اللهم اجعلها عليهم سنينا كسني يوسف** " فأجاب الله دعاءه .

وهكذا ضرب الله المثل بأهل مكة ، وبين كيف تبدلت أحوالهم من حياة ازدهرت فيها حضارتهم ، ثم بسبب كفرهم لنعم الله عليهم انحطت حضارتهم وتدهورت حتى أذاقهم الله حياة القحط والجوع والخوف والفزع، قال الله ﷻ ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ النحل ١١٢ .

العامل الثالث : الاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، إن أهم العوامل التي ساعدت على انهيار الأمم وانحطاط حضارتها ــ كما صورها القرآن الكريم ــ هو الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وفي هذا الشأن يحدثنا القرآن الكريم عن قبيلة " مدين " التي كانت تقطن في أطراف الجزيرة شمالا من جهة بلاد الشام ، حيث بدت مظاهر الرقي الحضاري في ديارها ، وبنو القصور الفخمة وشيدوها على أحسن نظام بديع تبلورت فيه كل فنون العمارة والبناء ، فبلغوا شأوا عظيما في المدنية والحضارة والتقدم العمراني ، وكانوا يشتغلون بالتجارة التي تعد ــ أيضا ــ أحد دعائم البنيان الحضاري ، لكن القوم بدلوا هذه النعم إلى محن ونقم

عادت عليهم ، وذلك أنهم طففوا في الكيل والميزان إذا اشتروا الحبوب من الناس ، وبخسوا الكيل وأنقصوا في الميزان إذا باعوا ، وهذا نوع من الاستغلال الذي حرمه الله ﷻ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ المطففين ١-٣ . ومن أجل ذلك بعث الله ﷻ إليهم رسولاً يبلغهم دعوة الله ﷻ ويحذرهم من التطفيف في المكيال والميزان ، كما ينهاهم عن الفساد في الأرض حيث شاع بينهم قطّاع الطرق الذين يعيثون في الأرض فساداً ، ونهبهم أموال الناس ويغتصبونها بالقوة ، وتلك مهمة نبي الله شعيب عليه السلام إلا أن القوم لم يعبأوا بالرسول وبالرسالة ، واستمروا في طغيانهم وإفسادهم وظلمهم حتى كانت عاقبة الله ﷻ وجزاءه ، فدمر الله عليهم حضارتهم ، وقضى عليهم بالصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، أي جثثاً هامدة لا حراك فيها ، وكأنهم لم يعيشوا هذه الحضارة التي سعدوا فيها وبرعوا في فن البناء والهندسة المعمارية ، وإن المشاهد لبقايا الأطلال من مدنهم وديارهم فيها ليقف على حضارتهم ، وما تزال بقايا مدنهم موجودة في شمال الجزيرة العربية ، وأطرافها من بلاد الشام ، والتي تُعرف بقصور مدين . (٨٤)

قال الله ﷻ ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . ﴾ هود ٨٤-٨٥ .

(٨٤) تأمل الآيات القرآنية من سورة هود ٨٤-٩٥ .

العامل الرابع : البخل والشح ، وكان لهذا العامل الهدام أثره في انـــهيار حضارة الأمم وانحطاطها، وقد حكى لنا القرآن الكريم أثر هذا المعـــول الهدام في قصة " أصحاب الجنة " ، وخلاصتها : أن رجلاً من أهل اليمن ــ وقيل من أهل الحبشة ــ كان له ثلاثة أولاد ، وخلف لـــهم بســتاناً ، وكان يراعي حق الفقراء والمساكين في ثماره ، بحيث كان يأكل منـــها هو وأولاده ويدخر لهم قوت السنة ويتصدق بالباقي ولا يحرم سائلاً مـــن ثمارها ، فلما مات الرجل وورثه بنوه أرادوا منع العطاء، فدبروا مؤامرة على حرمان الفقراء والمساكين والسائلين من ثمارها ، وقالوا في تبريرهم لهذه المؤامرة الدنيئة : لقد كان أبونا أحمقاً إذ كان يتصرف في شيء مـن هذه للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا علـــى ذلـــك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكيلة حتى لم يبـــق لـــهم شيء من ثمارها ، وهذا كله من مخالفتهم أوامر الله ﷻ والجنـــوح إلـــى البخل والشح ومنع العطاء لأهل الفاقة والمحرومين .

وفرق بين حضارة مادية جامحة تطمع بالعطـــاء وتؤثـــره لنفســـها دون غيرها، وتستغل نعم الله ﷻ عليها لأنانيتها وتضن بها على سائر الناس ، وتمنعهم حقاً من حقوقهم ، وحضارة توازن بين القيم المادية والروحيـــة وتوائم بينهما ، وفي هذا الشأن يقول الحق ﷻ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَـــا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَـــافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَـــائِمُونَ . فَـــأَصْبَحَتْ كَـــالصَّرِيمِ . فَتَنَـــادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَـــانطَلَقُوا وَهُـــمْ يَتَخَافَتُونَ .أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل